مجلة العلوم الإنسانية والحضارة ـــ ISSN 2661-7307
المجلد 06 ـ العدد 02 ـ السنة 2024 ص 70 - 94 EISSN 2773-4048
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/730

إطلالة على تاريخ بلاد السودان الأوسط من خلال قراءة في أطروحة: "العائلة الفودية ودورها الإصلاحي في السودان الأوسط خلال القرن 13هـ/19م"، للباحث محمد هداجي.

A view of the history of the country of Centrale Sudan through a reading in the thesis: The Faudi family and its reformist role in Central Sudan during the 13 th century AD, by researcher Muhammad Haddaji.

د. أمين البدادي*

جامعة الحسن الثاني – بالدار البيضاء (المغرب) *elboudadiamine@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 2024/05/24 تاريخ القبول: 2024/06/13 تاريخ: النشر: 2024/06/30

الملخص:

تسعى هذه الورقة إلى دراسة أحدث الأبحاث الأكاديمية التي اهتمت بمقاربة تاريخ السودان الأوسط على عهد آل فودي، ومن النتائج المتوصل إليها، نشير إلى نجاح عثمان بن فودي على غرار الحركات الإصلاحية التي شهدتها بلاد المشرق والمغرب الإسلاميين في القرن التاسع عشر، في تجسيد حركة إصلاحية في بلاد الهوسا، قامت على أساس الاستناد لمجموعة من الأسس، فحقق بذلك نجاحات سياسية كبرى من أهمها تشكيل خلافة إسلامية مترامية الأطراف تغطي حدودها بلاد السودان الأوسط، ناهيك عن انتقال هذه الأخيرة إلى مرحلة الوحدة والاستقرار السياسيين في ظل التجربة الإصلاحية الفودية، التي أرست تقاليد ومرجعيات متفردة في نظم الحكم والثقافة والاقتصاد كلها ذات توجهات وأبعاد عربية إسلامية.

الكلمات المفاتيح: عثمان ابن فودي . بلاد الهوسا ; السودان الأوسط ; الإصلاح.

* المؤلف المرسل

Abstract :
This paper seeks to study the latest academic research that has been concerned with approaching the history of Middle Sudan during the era of the Fodi family, and from the results reached, we refer to the success of Othman Ibn Fodi, similar to the reform movements witnessed in the Islamic countries of the East and the Maghreb in the nineteenth century, in embodying a reform movement in the Haussa country, based on a set of foundations, thus achieving major political successes, the most important of which is the formation of a sprawling Islamic califat whose borders cover the countries of Central Sudan, not to mention The transition of the latter to the stage of political unity and stability in light of the reformist experience, which established unique traditions and references in the systems of government, culture and economy, all of which have Arab-Islamic orientations and dimensions.
***Keyword** : Osman Ibn Fodi , Haussa , Central Sudan , Reform*

تقديم:

ركزت الكتابة التاريخية في المغرب بعد الاستقلال على تناول السودان الغربي بالبحث والدراسة، نظرا للعلاقات الوثيقة بين المجالين ووفرة المصادر التي تغري الباحثين بالتعاطي مع مختلف المواضيع، بالمقارنة مع السودان الأوسط، حيث اعتبر البعد الجغرافي لبلاد الهوسا عن المغرب عائقا أمام الباحثين بالإضافة إلى قلة الوثائق الفودية إلى درجة الندرة في المكتبات المغربية، وبالتالي ظلت الأبحاث المنجزة عن تاريخ وحضارة بلاد السودان الأوسط نادرة، الشيء الذي جعل المعرفة التاريخية إزائها محدودة بالنظر للوثائق الغزيرة الموروثة عن ابن الفودي.

ولا يخفى في هذا الصدد أننا لازلنا في مرحلة تحقيق التراكم في كتابة تاريخ بلاد السودان الأوسط[1]، ولم نصل بعد إلى مرحلة إنجاز الأعمال التركيبة بموصفات مؤسساتية، كما حصل في تاريخ المغرب منذ سنة 2011، مع تجربة المعهد الملكي لتاريخ المغرب.

يحق القول إن الباحث محمد هداجي كان على بينة من ضرورة الانفتاح على تاريخ بلاد السودان الأوسط لسد الفجوة الحاصلة، وفي نفس الوقت تعميم المعرفة التاريخية عن

مرحلة تاريخية مهمة أضحت فيها بلاد الهوسا قلب ومركز الحضارة وحاضرة خلافة كبرى بالعالم الإسلامي، حيث ظلت من المناطق التي تأخر استعمارها، وكان له الفضل كذلك في توجيه اهتمام باحثين بالإشكالات العميقة لتاريخ بلاد السودان عامة والأوسط خاصة، الجدير مقاربتها في مواضيع مستقلة وجماعية، وبالآفاق الممكن أن يتخذها مسار البحث مستقبلا في تاريخ السودان.

طرح البحث آليات وحلول تطوير البحث في تاريخ بلاد السودان الأوسط، والتغلب على الصعوبات المحدقة حتى يستفيد منها الطلبة والباحثون والمؤسسات البحثية، الراغبة في الاشتغال على قضايا من تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء. وبين البحث أن الإصلاح لم يكن واقعا مقتصرا على جهات معينة من العالم الإسلامي، بل أيضا شمل إفريقيا جنوب الصحراء التي لا تقل شأنا ثقافيا وفكريا عن المشرق العربي وشمال إفريقيا، وأوضح أنه بغض النظر عن افتقاد العائلة الفودية للمشروعية المتمثلة في الارتباط بالنسب النبوي، إلا أنهم اكتسبوا ثقلا معرفيا وفكريا وروحيا، مكنهم من تجسيد حركتهم الإصلاحية.

نستحضر أن هدفنا من عرض ودراسة أطروحة الباحث محمد هداجي الموسومة بالعائلة الفودية ودورها الإصلاحي في السودان الأوسط خلال القرن 13ه/19م، هو التعريف بها أولا، وبتاريخ بلاد السودان الأوسط ثانيا، وطرح ملاحظات حولها ثالثا، بغرض تحفيز تبادل التجارب العلمية وتعزيز التواصل بين الباحثين للارتقاء بالمنجز العلمي الأكاديمي للأفارقة عن إفريقيا في تخصص تاريخ إفريقيا من جهة، وتأكيدا على أن العمق الإفريقي وتاريخه، يأتي على رأس الاهتمامات العلمية للباحثين بشمال إفريقيا بحكم الانتماء لنفس المجال والتاريخ المشترك. ونؤكد أننا نروم من هذا العمل تجاوز إشكال قلة الدراسات المنجزة عن بلاد السودان الأوسط وإن وجدت على قلتها نلاحظ أن وجودها يظل حبيس المكتبات لا تحظى بالإشعاع والتعريف اللازمين. وبالنسبة للمنهجية المتبعة نحيل القارئ أننا اتبعنا المنهج الاستقرائي، الذي يسهل تتبع البحث من مستواه العام إلى الخاص في أفق متوازن لاستخلاص الملاحظات العامة أولا، ثم الجزئية ثانيا المتعلقة بعمق البحث.

1 - أهمية البحث:

كشف البحث موضوع الدراسة عن المقومات الحضارية لبلاد السودان الأوسط في أزهى فترات رقيها الحضاري، وأبرز لنا أهمية الموروث الإفريقي المحلي في الكتابة التاريخية، فضلا عن إظهاره مدى اهتمام أبناء القارة بتاريخهم، خاصة الباحثين في شمال إفريقيا بقضايا تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، كما استفرد البحث بإبراز أن منطقة بلاد السودان الأوسط هي الأخرى شهدت على غرار العالم الإسلامي نهضة إصلاحية قادها عثمان ابن فودي خلال القرن التاسع عشر، أثمرت تحول بلاد الهوسا إلى قاعدة للخلافة الإسلامية في بلاد السودان، وإشعاع تأثيرها الحضاري ونمو نفوذها السياسي وامتداده ليشمل مناطق واسعة من بلاد السودان، ناهيك عن أهميته الملحوظة في رصد دور البيوتات العلمية المحلية، لاسيما آل فودي في استحداث الإصلاح من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعتماد على الدين الإسلامي والثقافة العربية كمرجعية للتحكم في السلطة وخلق خلافة محلية مناهضة لأشكال الوثنية المختلفة، والإطاحة بالممالك المناهضة، كما اكتسى البحث أهمية قصوى، تتجلى في توضيح أن إفريقيا جنوب الصحراء، حققت مع الفودين نهضة حضارية، لم تكن مدينة فيها للتأثير السياسي المباشر لشمال إفريقيا، حيث كانت من قبل صدى لها، وهذا الاستثناء رأى فيه البعض تفوق إفريقيا جنوب الصحراء حضاريا على شمال إفريقيا في التاريخ المعاصر.

تجدر الإشارة إلى أن الحركة الإصلاحية الفودية - كما أبان البحث - لم تكن متعصبة تجاه الهوية المحلية من التأثيرات الخارجية، بل اتخذت من اللغة العربية لغة رسمية للدولة وحتى اللغات الإفريقية المحلية نفسها كانت تكتب بالحرف العربي. واكتسى البحث أهمية قصوى على مستوى تزييف مجموعة من المغالطات كانت من ذي قبل رائجة عن الفودين وتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، التي غالبا ما تكون صادرة عن الكتابات الأجنبية ذات المرجعية الاستعمارية. ولا يمكن التغاضي عن أهمية المقارنة التي تتيحها أبواب البحث، إذ تساعد المطلع عليها في معرفة أوضاع بلاد السودان قبل وبعد عصر آل فودي، وبالتالي الاطلاع على خواص ومميزات الإضافة النوعية الفودية في سلسلة التجربة الحضارية لبلاد السودان على مر التاريخ.

2 – عرض البحث:

استهل الباحث عمله الأكاديمي بعنصر التقديم، حيث تطرق فيه إلى إبراز دور إفريقيا المركزي في الأحداث العالمية، منذ المراحل التاريخية القديمة، بحكم موقعها الجغرافي، حيث كانت محط التقاء الهجرات البشرية المختلفة، مما تسبب في تفاعلها ببعضها البعض. كما دافع عن الأطروحة القائلة بأسلمة السودان الغربي خاصة وإفريقيا جنوب الصحراء عامة، بفعل التجارة والمرابطين زيادة على ذلك دور القبائل الإفريقية التي تبنت الرسالة المحمدية وساهمت في نشرها إلى مجالات وثنية بعيدة المدى في العمق الإفريقي، مشيرا إلى قبائل الهوسا والفولاني، حيث برز منهما أعلاما كالشيخ عثمان بن فودي وعائلته، الذين خلد التاريخ المحلي الإفريقي منجزاتهم وأعمالهم في هذا الصدد[2].

اعتبر عثمان بن فودي من عظماء بلاد الهوسا الذين تحملوا مسؤولية إعلان نفسه مجددا، صاحب المرجعية المالكية والعقيدة الأشعرية، أكسبه الحظ في النشأة بين أحضان أسرته العريقة والمتشبعة بالثقافة الإسلامية من أن يصبح مجدد عصره متجها نحو تكريس السنة ومحاربة البدع والخرافات، الغالبة على عادات أفراد مجتمعه. ولقد أفاد الباحث أن ابن فودي في منهجه الإصلاحي كان متأثرا بتصورات ومبادئ الفكر السابق لفترته العائد للفقيه المغيلي، الشيء الذي مكنه من جذب أتباع كثر استند عليهم في إقامة دولة إسلامية كبرى[3].

ومن الأبعاد الثقافية التي نجمت عن الحركة الإصلاحية الفودية كثرة مؤلفات ابن فودي وتنوع الحقول المعرفية التي اهتم بالتأليف فيها، حيث ترك بعد وفاته ما ينيف عن مائة وخمسين مؤلفا بين المطبوع والمخطوط، وواصل أبناؤه وأخوه عبد الله حركته الإصلاحية، فزاد مدد صمود دولتهم في الوجود إلى أزيد من قرن مخلفة تغييرا جذريا في الحياة الحضارية لمجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء[4].

يفسر الباحث لجوءه إلى إنجاز هذا العمل بقلة الأعمال المنجزة باللغة العربية عن الدور الحضاري للعائلة الفودية بالمقارنة مع ما كتب باللغة الفرنسية والإنجليزية على الرغم من غنى الموروث الثقافي الفودي المكتوب، مع تعهده التركيز على توضيح الدور الفعال الذي لعبه الفوديون وتأثيراته على سلوكيات أفراد المجتمع. وفي عنصر الإطار الزماني والمكاني الذي خصصه لموضوع بحثه، برر اختياره زمنيا للقرن التاسع عشر لكون هذا الأخير يعد المرحلة

التي عاش فيها ابن فودي مؤسس الحركة الإصلاحية الفودية، ومرحلة بروز حركات إصلاحية في مناطق مختلفة من العالم إلى جانب ظهور النزعة الاستعمارية الأوروبية آنذاك، حيث كانت خلافة ابن فودي آخر خلافة إسلامية في العالم تقاوم الهيمنة الإمبريالية التي أثرت على تطورات منطقة بلاد السودان الأوسط بشكل مباشر[5].

أما دواعي اختيار الموضوع الذاتية والموضوعية فقد أجملها في رغبته في الإلمام بالتاريخ الحضاري لبلاد الهوسا، والتعريف بالشخصيات المحلية التي كان لها فضل كبير على شعوبها وإبراز الفكر الإصلاحي للشيخ عثمان بن فودي وعائلته وقلة حظ السودان الأوسط من الأبحاث والدراسات الأكاديمية وفضلا عن الإحاطة بالمكانة الحضارية التي لعبتها المنطقة الأخيرة[6].

وفي حديثه عن أهمية دراسته المنجزة لخصها في انفرادها بتسليط الضوء على العائلة الفودية التي تعتبر من أشهر الأسر الافريقية مساهمة في توسيع رقعة انتشار الإسلام ومحاربة الوثنية، ومنها خرج علماء اشتهروا بكثرة التأليف والإنتاج العلمي، بالمقابل عدد أهداف الدراسة في نقاط متعددة في طليعتها التعريف بتراث العائلة الفودية وإبراز مدى خدمة هذه العائلة للإسلام ومحو صورة الإسلام الإفريقي ودراسة الحركة الإصلاحية بالسودان الأوسط في شموليتها من الزاوية العربية الإسلامية والإفريقية المحلية والأجنبية ودراسة مختلف المصنفات الفودية بطريقة أكاديمية والتركيز على حركة المقاومة والتجديد في افريقيا خلال القرن التاسع عشر[7].

وفيما يخص الإشكالية فقد صيغت خصيصا لملامسة الدور الذي قامت به العائلة الفودية في السودان الأوسط خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وتفرعت إلى مجموعة من التساؤلات الجزئية. وفي موضوع المنهج المتبع بين الباحث استعانته بالمنهج التحليلي الذي يعين إلى حد كبير على تفكيك تفاصيل الأحداث التاريخية، واستخلاص النتائج[8].

تشكل هيكل البحث من مدخل تضمن ثلاث فصول وبابين تشكل كل واحد منهما من ثلاثة فصول، لينتهي بالخاتمة والتوصيات ومجموعة من الفهارس والملاحق[9].

وفي جانب الدراسات السابقة لم يخف الباحث اهتمامه برسائل الماستر والدكتوراه المنجزة داخل الجامعة الجزائرية، في سياق جمع المعلومات والمعارف المتعلقة بإشكالية

موضوعه، وزيادة على هذا بذل مجهودا في الوصول للأطاريح التي أنجزها المشارقة عن تاريخ آل فودي، لاسيما أطروحة محمد بن علي السكاكر. أما المصادر التي اعتمد عليها فتنقسم إلى قسمين: منها ما هو محلي من تأليف أفراد العائلة الفودية وميز فيها بين المخطوط والمحقق ومنها أيضا ما هو عربي اسلامي وأجنبي، خاصة الرحلات الأوروبية[10].

وبخصوص صعوبات البحث كما يظهر من العمل، فإنها ترتبط بقلة الأعمال الأكاديمية التي تناولت الموضوع قيد الدراسة بشكل موسع، وقلة مخطوطات آل فودي في المكتبات الجزائرية، وتضارب آراء المؤرخين بشأن بعض الوقائع وتشعب جوانب الموضوع[11].

خصص الباحث الفصل الأول من المدخل لتأطير المفاهيم المهيكلة للبحث، لاسيما مفهوم بلاد السودان، حيث لاحظ اختلاف في مرجعيات التعريف، فإذا كان الأدباء والمؤرخون المسلمون القدامى اعتبروا المصطلح يطلق على جماعات بشرية بشرتهم داكنة، فإن ابن خلدون أقر بأن التسمية لها علاقة بالمناخ وليس بالخلفية العرقية، فكلما ارتفعت درجة الحرارة ازداد الإنسان سوادا، وكلما اشتدت البرودة ازداد الإنسان بياضا. ويستنتج أن العرب هم أول من أطلق لفظ السودان على الشعوب التي تستوطن المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غربا والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا والصحراء الإفريقية الكبرى شمالا وخط عرض 10 جنوبا، كما رأى أن بلاد السودان حظيت بأسماء أخرى من لدن الجغرافيين العرب كاسم بلاد التكرور[12].

رصد التطور في دلالات مصطلح بلاد السودان خلال العصر الحديث مع غزو الأوربيون لأفريقيا، إذ أضحى يستعمل بشكل جزئي، فالإنجليز أطلقوه على مستعمراتهم في كل من مصر والسودان وأوغندا بتعبير السودان المصري وعلى غرارهم سموا به الفرنسيون مستعمراتهم في إفريقيا الغربية بالسودان الفرنسي، وعلى هذا قسم المؤرخ الإنجليزي بلاد السودان إلى ثلاثة مناطق مختلفة، هي السودان الشرقي والأوسط والغربي تتشكل بدورها من عدة مناطق جغرافية محددة، ثم انتقل إلى تحديد مواصفات بلاد السودان الأوسط على المستوى الطبيعي، بذكره خصائصها التضاريسية والمناخية. واتبعها بذكر تركيبة مختلف القبائل والتجمعات البشرية التي شكلت النسيج الاجتماعي لبلاد السودان الأوسط وميز في ذلك ما بين المحلية والوافدة مع تعريفها وتحديد أصولها وهجراتها وتفرعاتها وخصائها

الفيزيولوجية وأهم الأحداث التي جسدتها، ومن القبائل والتجمعات المحلية، أشار إلى الساو أو الصو وقبائل الزغاوة والكانمبو وقبائل الكانوري وقبائل الهوسا وقبائل الفلاني، بالنسبة للقبائل الوافدة ذكر قبيلة جهينة وعرب الشوا وقبائل البولالا البربر[13].

أما في الفصل الثاني تناول الذي عنونه بانتشار الإسلام في السودان الأوسط، استهله بالقول أن القرب الجغرافي لإفريقيا الشرقية مع الجزيرة العربية كان عاملا أساسيا في انتشار الدعوة الإسلامية وسرعة انتشارها منذ مرحلة الدعوة الجهرية، بالإضافة إلى تنقلات التجار وقيامهم بنشاط الدعوة، فضلا عن مبادئ الإسلام السمحة، وعليه استطاع الإسلام أن يتسرب إلى مناطق متعددة من قارة إفريقيا، لاسيما في المرحلة الأولى بالأنحاء الشرقية منها على غرار منطقة القرن الإفريقي والحبشة، ناهيك عن وصول المسلمين في فترات متأخرة إلى مناطق عميقة من القارة المذكورة. وبعد هذا انتقل إلى سرد تفاصيل حدث الفتوحات الإسلامية في افريقيا، حيث ركز في المنطلق على سياق وأحداث الفتح في منطقة شمال إفريقيا، وبالنسبة لوصول الإسلام للسودان الأوسط اعتبره زمنيا متأخرا حدده في القرن 8ه/14م، وكان وراء انتشاره التجار الونغريين من مالي، إلى أن تعزز انتشاره في عهد الملك أسكيا محمد في القرن 10ه/16م، غير أن تأثيره ظل محدودا وسطحيا في فئة التجار والعلماء والسياسيين، لكن حين قيام خلافة ابن فودي سيتقوى وجوده داخل السودان الأوسط. وفي نفس الفصل تطرق إلى دراسة العوامل المساعدة على انتشار الإسلام في بلاد السودان ولخصها في عنصر قواعد الإسلام السمحة، والفتوحات الإسلامية والهجرات القبلية، والعلاقات التجارية، ودور الدعاة والعلماء[14].

في حين أنه في الفصل الثالث طرح نتائج انتشار الإسلام في السودان الأوسط، والتي تتجلى في اعتناق سلاطينه للديانة الإسلامية، فتحولت على إثر ذلك أنماط الفكر والسياسة والقوانين إلى معاملات ذات صبغة إسلامية، فضلا عن ارتباط العلاقات الزوجية بواسطة الزواج الشرعي، كما تراجعت الممارسات الوثنية من قبيل الرقص وبالمقابل تزايد الاهتمام بوصف النبي صلى الله عليه وسلم والتغني بخصاله الحميدة، وتصاعد تأثير المؤسسات الدينية المتنوعة في نشر المعرفة الدينية وترجمة الكتب والاكثار من حلقات الذكر ومراكز تحفيظ القرآن الكريم، وكنتيجة للتأثير الكبير للإسلام في النسيج السياسي والاجتماعي

للسودان الأوسط، برزت عدة ممالك إسلامية ركز بالأساس على ذكر كمملكة كانم برنو، وممالك الهوسا، مشيرا إلى سياق تأسيسهما وحدودهما الجغرافية ودلالات تسميتهما وأصول شعوبهما وطبيعة نشاطهما الاقتصادي وأبرز ملوكهما وجملة انجازاتهم وأدوارهم البارزة في ترسيخ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية. وفي خلاصة المدخل أكد الباحث أن مصطلح السودان يطلق على سكان وجغرافية إفريقيا جنوب الصحراء، وينقسم إلى ثلاث جهات، فهناك سودان شرقي وأوسط وغربي ولكل جهة خصائص جغرافية وبيئية متميزة، فضلا عن حدود ومناطق تمتد عليها، واستحضر أن الظروف الطبيعية التي حظي بها السودان الأوسط جعلت منه منطقة ملائمة لاستقرار القبائل السودانية وتشكل حضارة راقية ازدهرت كثيرا بعدما وفد الإسلام وقامت ممالك إسلامية محلية رسخت معالم الثقافة العربية الإسلامية وتصدت للوثنية[15].

استهل الفصل الأول من الباب الأول، بالبحث والتقصي بخصوص قبائل الفلان بذكر أشهر الروايات التاريخية التي حددت أصولهم، حيث لاحظ غناها وتعددها وأحيانا تضارب أخبارها، إلا أنه حسم الجدال الدائر في هذا الموضوع الشائك بترجيحه الرواية القائلة بأن أصول الفلان، أو الفلاتة من عقبة ابن نافع وهم جماعات متنوعة، إذ ميز فيهم بين الفلانيين الأصليين وهم من صلب عقبة ابن نافع وأمهم رومية، والفلانيين الذين كانوا أحفاد عقبة ابن نافع من ابنته فاطمة، والفلانيين بني العرب، والفلانيين الجعفريين، وبين صفاتهم الفيزيولوجية وميلهم لممارسة الرعي والترحال والاستقرار في المناطق الإسلامية. وأوضح أن استقرار الفلان ببلاد الهوسا جاء نتيجة هروب جدهم موسى جوكلو، الجد العاشر لعثمان بن فودي من الاضطهاد السياسي الذي كانت تشهده منطقة فوتاتورو لاجئا هنالك عند الفلانيين التورد خلال القرن الثاني عشر الميلادي، وراح ينشر الإسلام وتعاليمه السمحة ويناهض مظاهر الوثنية، وظل أبناؤه في تحركات مستمرة ببلاد الهوسا جراء المضايقات الممارسة عليهم من الحكام وإليهم ينتسب عثمان بن فودي[16].

وفي هذا الفصل، تناول مجموعة من القضايا منها تعريف شخصية ابن فودي انطلاقا من تحديد نسبه، الذي أرجعه للقبائل الفلاتية التي هاجرت من شمال إفريقيا إلى أقاليم فوتا تورو وفوتا جالون، وذكر أن لقبه هو الشيخ، واستحضر الباحث في هذا الفصل

تأكيد ابن فودي لنسبه الأصلي الفوتي وانتسابه جغرافيا إلى بلاد الهوسا، في معظم فاتحة مؤلفاته، وحدد تاريخ ميلاده في سنة 1754م، بقرية مارثا بولاية سوكوتو، مبينا أنه نشأ في بيئة علمية إسلامية ساعدته على حفظ القرآن الكريم والتضلع في العلوم الدينية، استهل بداية مساره التعليمي على يد أفراد علماء من أسرته، لاسيما والده محمد فودي، الذي حضه بشغف على التعمق في العلوم الدينية، زيادة على أقربائه من جهة أبيه أو أمه، وبعد ذلك شد الرحلة إلى جهات معينة داخل بلده قاصدا التتلمذ على كبار علماء بلده والتزود منهم بمختلف العلوم[17].

ولم يثبت عليه خروجه من بلده في سياق سعيه إلى طلب العلم، أو تتلمذه على العلماء العرب، ما عدا تأثره ببعض أفكارهم، خاصة المغيلي، حيث فوق ذلك تأثر أيضا بطريقته الصوفية وأسلوبه الإصلاحي، وظهر ذلك جليا من خلال كثرة الاستشهاد بأفكاره في دراسته لقضايا مختلفة، مكنته تجربته العلمية من الوصول إلى مرحلة النضج والقدرة على مناقشة مختلف القضايا الدينية والدنيوية الشائكة في عصره وكل هذا أهله لممارسة الإصلاح ومحاربة البدع في بيئته، ويشير إلى أن رحلاته الدعوية انطلقت من مسقط رأسه لتعم جهات مختلفة من بلاد الهوسا، واستعمل في ذلك اللغة العربية أحيانا ولغته المحلية أحيانا أخرى، فاجتمعت له حشود من المناصرين لدعوته بسبب قوته على الإقناع، وعندما قويت شوكته صار خصما يقلق بعض الملوك الذين يريدون التخلص منه بشتى الطرق. ولقد التفت في خضم رحلاته إلى أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية التي كانت تعيشها قبائل وممالك الهوسا، التي تهيمن عليها الوثنية، فحفزه ذلك على خوض حركته الإصلاحية، مبنية على أسس شاملة، في مقدمتها الأسس العقائدية، التي سخر فيها مقومات المذهب الأشعري الذي يعتنقه في الرد على الشبهات والانحرافات والبدع التي تؤدي إلى الشرك، من جهة، ومن جهة أخرى تعليم العوام في ظل انتشار الجهل والأمية، مبادئ التوحيد، ونلفت الاهتمام أن ابن فودي على مستوى العبادة انتسب للمذهب المالكي[18].

وفيما يتعلق بالأسس الصوفية، لابد من الإشارة إلى أن بداية إقبال ابن فودي على التصوف، بدأ بانفتاحه على دراسة كتاب الفتوحات المكية لمحي الدين ابن العربي وأعمال المتصوف أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي ومؤلفات الإمام الغزالي، وضمن خواص ومعالم

تجربته الروحية في كتابه السلاسل الذهبية للسادة الصوفية، حيث ذكر فيه سنده في تلقين الشهادة في كل من الطريقة القادرية والخلوتية. والظاهر أن انتماؤه للتصوف أفاده في تمتين قوة رابطة جماعته وترسيخ أسس التصوف المعتدل في بلاده ومحاربة البدع وتعظيم حرمات المشايخ. أما فيما يهم الأسس السياسية والاجتماعية التي دفعت بابن فودي للإصلاح، تتجلى في غياب العدالة الاجتماعية والاستقرار السياسي وعدم تقيد الحاكم بأحكام الشريعة الاجتماعية والإحسان للرعية، وبالنسبة للأسس التربوية والتعليمية هي الأخرى منحها ابن فودي قيمة قصوى من الاهتمام، نظرا لمركزية دور التعليم والتربية في دعوته الإصلاحية، إذ تسنى له بفضله تمرير مبادئ الدعوة[19].

ومن الأسس أيضا توظيف ابن فودي للمرأة في مجال التعليم والتدريس، ومنحها قيمة اعتبارية داخل المجتمع ورفع عنها الحيف الذي كانت تعيشه قبل ظهوره على مسرح الأحداث السياسية لبلاد الهوسا وأضحت في عهده تحظى بحقوقها ومسؤولة عن واجباتها. أما أسس طرق الإصلاح عند ابن فودي التي تمسك بها في دعوته نجد الطرق الفكرية والعلمية، حيث وظف هذه الأخيرة لفهم البنيات الاجتماعية المركبة لمجتمعه حتى يسهل عليه جعلها قابلة للدعوة، إلى جانب مراسلته لحكام الممالك المجاورة له، لاعتناق الإسلام الصحيح والنهي عن المنكر[20].

وفي المحور الموالي، أجمل تبلور الحركة الإصلاحية الفودية في أسباب متنوعة ليخلص في نهايته أن تدهور وتردي الظروف العامة في بلاد السودان الأوسط جميعها تظافرت لتمهد الطريق أمام ولادة الحركة، التي مرت بمرحلتين أساسيتين، فالمرحلة الأولى الممتدة من 1774 – 1803م، تميزت بكونها مرحلة التكوين، حيث شملت المرحلة الأولى من حياة ابن فودي التي كان فيها متفرغا للعلم وفيها استأنف بداية نشاط أفكاره الإصلاحية حينها كانت موجهة للعامة بهدف تنويرهم ومحاربة البدع ومظاهر الفساد، وذات ارتباط أكثر بالجانب الديني والاجتماعي بمقابل الجانب السياسي، إلا أنها لقيت مضايقات من بعض الزعامات التي حاولت إقبارها وهي في المهد[21].

أما المرحلة الثانية المتراوحة زمنيا ما بين 1804 و1809، فقد اتسمت بانتقال ابن فودي من الدعوة إلى أسلوب الجهاد، حيث نضجت حركته واتضحت أهدافها السياسية في

تأسيس خلافة إسلامية كبرى على حساب الممالك المحلية الوثنية، التي لم تقبل دعوته، إلا بحد السيف، ورغب أيضا في ضم ممالك إسلامية مجاورة له كانت تعيش في مرحلة ضعف، وعموما في سنة 1810م، حقق ابن فودي طموحه السياسي، المتمثل في السيطرة على بلاد السودان الأوسط وجعلها خاضعة لإرادته السياسية والفكرية والروحية المنبثقة عن المرجعية الدينية[22].

أما بالنسبة للفصل الثاني من الباب الأول، خصصه لإبراز دور عبد الله بن فودي في حركة أخيه الإصلاحية، حيث لازمه أكثر من خمسين سنة، وكانت ولادته سنة 1782م، في قرية بمنطقة غوبر، وتربى في بيئة علمية منذ أوائل حياته، تلقى فيها مبادئ العلوم الإسلامية جعلت منه عالما ومصلحا وعارفا بمختلف العلوم الشرعية واللغوية، ولقد أشار إلى معظم الشيوخ الذين نهل عنهم في كتاب وضعه تحت عنوان إيداع النسوخ في ما أخذ عنه من الشيوخ، كما تتلمذ عليه هو الآخر خلق كثير من التلاميذ بينهم أفراد من أسرته، خلف مؤلفات كثيرة تتوزع على مختلف صنوف المعرفة تشي بغزارة علمه وكثرة إنتاجاته، التي تزيد عن مائة وسبعين كتابا. وحظي إزاء ذلك بكثير من الثناء من علماء متأخرين عن عصره، حيث وصفه الألوري بعلامة السودان. وفي جانب دوره في الحركة الفودية الإصلاحية ترجم في كونه المستشار الكريم لأخيه الذي كان يستشريه كلما أشكل عليه أمرا من أمور الدولة والسياسة، وانفراده بدور الرد على رسائل الجهات المستهدفة لدعوتهم[23]

وفي الفصل الثالث من الباب الأول، عالج فيه دور محمد بلو في الحركة الإصلاحية، واستهل ذلك بوضع تعريف لهذا الأخير محددا تاريخ ولادته في سنة 1780م، ومذكرا بأن البيئة العلمية التي نشأ فيها ألهمته التعلق بالإسلام منذ صغر سنه، وشرع في دراسة العلوم الإسلامية على يد والده وعمه وتنقل طالبا للعلم بين البلدان وعرف عنه إكرامه للعلماء واستضافتهم كشأن الحاج عمر تال. تولى قيادة الجيش على الناحية الشرقية من إمبراطوريتهم في عهد والده سنة 1808م، فقام ببناء عاصمة له خصها باسم سوكوتو ابتداء من سنة 1809م، ثم طلب من أبيه الإقامة فيها بعدما اعتزل الحكم، فظل بها إلى أن توفي سنة 1817م، وعلى هذا الأساس نصب محمد بلو نفسه خليفة لأبيه، وكنتيجة لامتداد نفوذه على مساحة جغرافية واسعة تتوطن عليها قبائل الهوسا المنتشرة ما بين نهر النيجر وبحيرة

تشاد واجه تحديا في ضبطها واستدامة خضوعها له، مما حتم عليه استجلاء سياسة خاصة في هذا الاتجاه، فقسم بلاد الهوسا إلى إمارات سبع، فضلا عن اتباعه لسياسة محكمة لمواجهة الاضطرابات والهجمات الخارجية، تتجلى في الاعتماد على الرباطات، والاعتماد على الشريعة الإسلامية وتوطيد علاقات مع العالم الخارجي[24].

وتجدر الإشارة إلى أن محمد بلو بعدما تخلص من معارضيه سنة 1820م، نقل العاصمة من سوكوتو إلى ورنو لموقعها الاستراتيجي، إذ جعلها رباطا كان يتمنى أن يموت ويدفن فيه، وفي آخر حياته، ألم به مرض على إثره توفي بعدما ظل طريح الفراش لمدة سبعة أشهر، وخلف على المستوى العلمي والثقافي كتب غزيرة تفوق مائة مؤلف، تدل على موسوعيته الفكرية، إلا أن أشهرها هو إنفاق الميسور في بلاد التكرور الذي عرف فيه بتواريخ وأحداث السودان الأوسط. وانتهى الباب الثالث بخلاصة مفادها عراقة العائلة الفودية وتجدرها في تاريخ السودان الأوسط وطلائعية أدوارها الإصلاحية والعلمية التي جسدها كل من عثمان بن فودي وابنه محمد بلو وأخيه عبد الله وإبراز خصوصيات المناخ العام الذي ساعدها على ذلك[25].

وفي الفصل الأول من الباب الثاني، تحدث عن أسباب وأسس الإصلاحات الفودية، أوعزها إلى أسباب سياسية تجلت في كثرة الفوضى والحروب المتتالية والتفرقة السياسية بين الممالك في بلاد الهوسا، وإلى أسباب دينية تمثلت في أنه على الرغم من انتشار الإسلام وتوغله في أجزاء، كبيرة من أقاليمها، إلا أن تأثيره ظل سطحيا بمقابل هيمنة الممارسات الوثنية، التي يزداد إشعاعها في حالات الصراعات المحلية بين ممالك الهوسا، كما أن التصوف في بلاد السودان الأوسط لم يغير من المعتقدات الوثنية بشكل كلي ومباشر، بالإضافة إلى أسباب اجتماعية واقتصادية تعود بالأساس إلى انتشار ظاهرة الاسترقاق والضرائب المجحفة، والاستعانة بالسحرة والمشعوذين والشرك وتقديس الأماكن وشيوع الاختلاط وشرب الخمور[26].

وعن سياق طرق الإصلاح عند آل فودي استعرض الباحث معظم الوسائل، والتي من ضمنها الطرق الفكرية نلتمسها في تقسيم عثمان بن فودي أفراد مجتمعه إلى فئات حسب عقيدتهم وخصص معظم أوقاته للوعظ والإرشاد والتنقل بين الأماكن بهدف تصحيح

المعتقدات الدينية وترسيخ التعاليم الأساسية للإسلام منطلقا من أبسط الأمور إلى أصعبها. أما فيما يخص الطرق العلمية تنحصر في نذرهم لملوك الممالك المجاورة إلى اعتناق الإسلام الصحيح، خاصة مملكة غوبر، وفي هذا الصدد أصدر عثمان بن فودي فتوى تفيد بضرورة دعوة الحاكم للإسلام الصحيح والنهي عن المنكر[27].

أما في الفصل الثاني من الباب الثاني، خصصه للحديث عن الإصلاحات السياسية والعسكرية، التي قام بها ابن فودي، فعلى المستوى السياسي، نجح هذا الأخير خلال سنة 1810م في إقامة خلافة إسلامية مستقلة مترامية الأطراف في بلاد السودان الأوسط، ورافق ذلك تبلور نمط جديد في التسيير السياسي، حيث أضحت السلطة في يد الفقهاء والعلماء، وهو الأمر الذي ساعد على انتشار الإسلام في جهات واسعة من الإمبراطورية، فوق ذلك وضع ابن فودي نظام الدواوين على غرار العباسيين، وصار يعين في المناصب من هو أهلا لها وجمع بين صفة الخلافة والإمامة وأوعز التسيير الإداري لمجلسين هما المجلس الاستشاري والتنفيذي في إطار ضمان حقوق الرعية وتطبيق أحكام الشريعة وحماية حدود دولته.[28]

ومن اللافت إن ابن فودي ضمن واجبات الحاكم الأساسية تجاه رعاياه في كتاب وضعه تحت عنوان "بيان وجوب الهجرة على العباد"، اتخذها الخلفاء بعده تقليدا في إدارة أمور المسلمين، ونبه الباحث إلى أن ابن فودي لم تكن طموحاته السياسية محدودة في تكوين ملك سياسي محلي من خلال دعوته الإصلاحية الموجهة إلى الفولانيين، وإنما كان يسعى إلى وضع نظام خلافة إسلامية بجمع شتات جل الأجناس والقبائل المتنافرة، وأشار إلى الدور السياسي البارز لعبد الله بن فودي في دولة أخيه، حيث كان يعينه في كتابة رسائل الفتوى والرد بتوظيف القصائد على الجهات التي تنكر وتضايق دعوتهم الإصلاحية، فضلا عن كونه كان أحد أهم مستشاريه وأمير المنطقة الغربية للدولة وأول من شغل منصب قائد الجيش الفودي، كما صار محمد بلو على منوال أبيه في بناء خلافة إسلامية في بلاد السودان الأوسط بعيدة عن العوائد الوثنية وعلى الرغم من الفتن التي ميزت عصره، إلا أنه حافظ على استمرارية الحكم السياسي الإسلامي باستعماله لأسلوب الرباطات في حماية المجتمع من التفرقة السياسية وتثبيت الأمن والاستقرار ونشر تعاليم الدين الإسلامي[29].

وعلى مستوى الإصلاحات الإدارية، نظرا لشساعة مساحة الإمبراطورية الفودية وثقل المهام وتعددها استحدث ابن فودي، منذ البداية الأولى لتوليه مهامه كخليفة الوزارات، وللإشارة فلقد تولى عبد الله بن فودي في البداية مرتبة الوزير الأكبر المكلف بالجهاد وشؤون الجيش وبمساعدة محمد بلو، وكانت الغاية منها السهر على شؤون الرعية وتجسيد السياسات العامة والقرارات التدبيرية على أرض الواقع، وحظي الوزير الأول في الحكم الفودي بأهمية قصوى، إذ كان نائبا للخليفة في إقليمه، فضلا عن جمعه بين الوظيفة الإدارية والعسكرية. وتجدر الإشارة إلى أن غالبية الوزراء كان ابن فودي يختارهم بناء على عامل الثقة لذلك نجد بأنهم إما من أصدقائه أو تلاميذه، واشترط شروط فيمن يتولى أمور الوزارة كانت مستمدة من الشريعة الإسلامية[30].

وفي عهد محمد بلو انقسمت الوزارة إلى نوعين وزارة ذات طابع استشاري ووزارة ذات طابع تنفيذي، وتميز بتسهيل الأمور الإدارية حتى لا تتعطل مصالح الرعية، ودعت تطورات الدولة إلى تأسيس نظام بريدي يتخصص في إرسال المراسلات، ويلاحظ أن القرارات زمن الخلافة الفودية وجميع الدواويين والمحاكم الشرعية بالإضافة إلى الشكاوي والشهادات في المجالس القضائية كانت تدون بالأساس باللغة العربية التي كانت حاضرة بقوة في التعامل اليومي والتدبير الإداري.[31]

أما التنظيم العسكري، دفعت الهجومات الخارجية والفتن الداخلية ابن فودي إلى صياغة منظومة أمنية متينة، قصد ضمان الاستقرار والحفاظ على حدود الخلافة من التحرشات والهجمات، فكانت تركيبة الجيش في بدايتها تضم المقربين من قبيلته وأصحابه وتلامذته وجعل من أخيه عبد الله وابنه محمد بلو أبرز قادة الجيش، إلى جانب القائد علي جيدو الذي يعتبر من أبرز ركائز ومؤسسي الجيش، وبعدما اتسعت الدولة جغرافيا وضمت فئات اجتماعية جديدة، ألحق بعضها بالجيش، فأغنت تركيبته، ومن أبرزها قبائل الفولاني والهوسا والطوارق واليوربا والبرنو، وتشكل الجيش على عهد ابن فودي من فرقتين أساسيتين هما فرقة المشاة والفرسان. وواجه الجيش في بدايته تحدي التسليح، حيث إن معظم أسلحته كانت بدائية بدون فعالية، فتفطن محمد بلو إلى ضرورة تحديث الآلة الحربية، باستيراد الأسلحة النارية من بريطانيا، وعمل أيضا على تشييد الرباطات العسكرية على طول وعرض

الإمبراطورية لقوتها في خلق التحصين الروحي والعسكري ومن أبرزها رباط ورنو الذي اشتهر بالرباط الأكبر وظل مرابطا به حتى وافته المنية[32].

بالمقابل تضمن الفصل الثالث من الباب الثاني، الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، التي أقدم عليها ابن فودي، ففي الميدان الاجتماعي، نرصدها في عمله على تغيير السلوكيات السلبية للمجتمع، فكان مثالا يقتدى به، حيث كان يعمل العمل الحلال لكسب عيشه، متحاشي أموال الحرام، حتى يغرس في نفوس أنصاره فضيلة التوكل على الله في كسب الحلال، وعمل على محاربة مجموعة من الظواهر السلبية والوثنية التي كانت تفسد مجتمعه، وكان من أبرزها الجهل والحكام المستبدين، واهتم بتعليم المرأة لدورها الأساسي في إصلاح المجتمع، وأثمرت جهوده على حلول الأعياد الإسلامية محل الاحتفالات الوثنية وأصبحت التقاليد الاجتماعية الإسلامية الصحيحة هي السائدة في المجتمع مثل عقود الزواج بشروطها والطلاق بأحكامه وتقسيم الإرث وفقا للشريعة الإسلامية، وعم تأثير اللباس المحتشم الذي يميز المسلمين، وأشاع في بداية حركته تجربة تعليمية كانت قائمة على الوعظ والإرشاد في الحلقات مستهدفا جميع الفئات وسرعان ما طوره وجعله أصناف متمايزة هي تعليم نظامي وتعليم في المعاهد والمدارس وتعليم مهني، وتعليم الجماعة الخاصة وتعليم عامة الناس، وأشرف بنفسه على التدريس، حيث كان يعقد مجلسين يتصدر فيهما للتدريس والوعظ والتذكير وعموما اشتهرت العائلة الفودية بالاهتمام بالعلم والعلماء وكثرة التأليف والموسوعية المعرفية واختارت اللغة العربية لغة رسمية وأساسية في التدريس مع استعمال اللغات الإفريقية المحلية.[33]

ومن المعلوم أن ابن فودي اتخذ مجموعة من الإصلاحات الاقتصادية، تتجلى في تشجيع الهجرة نحو المناطق الفلاحية الصالحة للزراعة وتقديم تحفيزات للمزارعين وتمليك الأراضي للذين يخدمونها، إضافة إلى تعدد الاستغلاليات الفلاحية بين أراضي فلاحية ذات طابع عائلي ومزارع كبرى، واشتهرت مرحلة محمد بلو بتركز المزارع قرب الرباطات قصد توفير الغذاء للمرابطين والباقي يوجه لسد حاجيات السكان، تعتبر الذرة والقمح من أهم المزروعات التي كانت سائدة داخل الخلافة الفودية إلى جانب بعض الخضروات والفواكه والزراعات الصناعية، ونذر ابن فودي نفسه لفرض ضرائب إسلامية في مجال الفلاحة، وصناعيا عمل

على تطوير أنواع مختلفة من الصناعات، وفي عهد محمد بلو تعاظم دور المدن الصناعية. أما تجاريا فلقد سعى الفوديون إلى تأمين الطرق والقوافل التجارية، الشيء الذي خلق وفرة البضائع ورواج تجاري هائل وتواصل الخلافة الفودية تجاريا مع مناطق داخل بلاد السودان وخارجها وتصدى الفوديون لحالات الغش بوضع إجراءات للمراقبة والزجر.[34]

أشاد الباحث في خاتمة الباب الثاني بالإصلاحات الفودية، التي شملت عدة مجالات، وأشار إلى أن عثمان بن فودي توصل إلى ضرورتها في بناء خلافته بعدما شخص الواقع المجتمعي الذي تعيشه بلاده، واستخلص أنها كانت ناجعة في إحداث التغيير والرقي الحضاري ببلاد الهوسا[35]، وفي ختام عمله، خلص الباحث إلى مجموعة من النتائج في مقدمتها انصهار ممالك بلاد السودان وانصهارها تحت حكم واحد كان بفعل بداية انتشار الإسلام بها، كما وضح أنه إذا كانت منطقة بلاد المغرب الإسلامي دورا كبيرا في نشر الإسلام والحضارة العربية في بلاد السودان بدء من الفاتحين الأوائل مرورا بأدوار التجار ووصولا عند دور الدعاة والعلماء الذين تكبدوا مشاق السفر للوصول إلى هذه المناطق لممارسة نشاط التوعية ونشر الإسلام الصحيح كما هو الشأن مع الفقيه المغربي وعثمان بن فودي بعده الذي كان حريصا على تربية أتباعه ومريديه على النهج السلفي الصحيح ومحاربة البدع والتقاليد والعادات الوثنية.[36]

واستخلص أيضا أن نجاح الجهاد الفودي أدى إلى تفكك الممالك الوثنية واندثار بعضها وبروز خلافة إسلامية أكثر مركزية ووحدة على المستوى السياسي رسخت معالم الاستقرار والأمن في محيطها، وكانت مؤسسات الخلافة ذات طابع إسلامي سواء تعلق الأمر بالوزارات أو القضاء، وكذا الدواوين وإزاء ذلك انتشرت الثقافة الإسلامية، نتيجة انتشار المساجد والمدارس التعليمية التي تولد عنها نخبة مثقفة ومتشبعة بروح الثقافة الإسلامية، واتصف آل فودي بكثرة التأليف وتنوع اهتماماتهم المعرفية، إلا أن مؤلفات عثمان بن فودي ركزت بالأساس على تناول ومناقشة قضايا سياسية، مما ساهم في إغناء الفقه السياسي، ويبرر هذا الاهتمام برغبته في إصلاح أحوال الأمة الإسلامية والعلم والعلماء وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ونبذ الوثنية والبدع والمعتقدات الفاسدة في المجتمع.[37]

وأشاد الباحث كذلك بالأدوار الفكرية والتربوية الفودية التي مكنت المرأة من التعلم والتعليم وجعلت اللغة العربية لغة رسمية في الدولة وأشع نجمها حتى صارت اللغات المحلية نفسها تكتب بالحرف العربي خاصة لغة الهوسا، وعموما تطورت الحياة الفكرية في مجتمع بلاد السودان الأوسط في ظل الخلافة الفودي، حتى راح النصف الأول من القرن التاسع عشر يعتبر العصر الذهبي بسبب الإنتاج الغزير لابن فودي وأخيه عبد الله بن فودي وابنه محمد بلو، ولا شك أن الحركة الإصلاحية للدولة الفودية استطاعت وضع هياكل إدارية محكمة وخلقت هرمية اجتماعية جديدة قائمة على أساس وحدة الدولة الإسلامية التي احتل فيها العلماء مناصب سامية، وأنعشت الحياة الاقتصادية وجعلتها خاضعة لتدبير الأحكام الإسلامية، وبالتالي يجدر القول إلى أن الحركة الفودية نموذج يحتدي به كل من يأمل في التحرر من الوثنية والتخلف الحضاري داخل القارة الإفريقية وخارجها، وضمن الباحث في بحثه بعد الخاتمة جملة من التوصيات، اقترح فيها سبل تعميق الاهتمام بتاريخ بلاد السودان الأوسط خاصة وإفريقيا جنوب الصحراء عامة.[38]

3 - الملاحظات النقدية للبحث:

سجلنا مجموعة من الملاحظات المعرفية والمنهجية والتوثيقية بعد قراءة عمل الباحث محمد هداجي، في طليعتها أن الباحث أغفل إبراز المعطى الروحي في الحركة الفودية الإصلاحية، خصوصا وأن التصوف في السودان خلال القرن التاسع عشر صار في مرحلة النضج، وهناك بعض الإشارات عن بروز طريقة فودية مع عثمان بن فودي، فضلا على أن هذا العمل لم يشر إلى الرسائل الودية بين الفوديين وآل كنتة التي تطرقت لمواضيع إصلاحية مختلفة بين الجهتين. كما أن صاحبه في خضم إنجازه لم يطلع على بحث الأستاذة بهيجة الشاذلي الموسوم بالفكر السياسي عند عثمان بن فودي الذي نوقش في جامعة الحسن الثاني منذ سنة 2001، والمنشور من طرف مركز الدراسات الصحراوية سنة 2015، الذي كان سيغنيه في عدم تكرار الكثير من المعلومات ويفيده بشكل كبير من حيث الوثائق الأجنبية والمخطوطات، المثبتة في الملحق، خصوصا النسخة المرقونة بالجامعة المذكورة التي تضم جزء مستقل من المخطوطات الفودية النادرة. ناهيك عن عدم اهتمامه بالعودة إلى الاستفادة من الأطروحات المتخصصة في تاريخ آل فودي ببلاد السودان، التي نوقشت بالجامعة الجزائرية،

لاسيما أطروحة الطاهر دوباخ، إمارة عثمان بن فودي في غرب إفريقيا 1218 – 1232هـ/1804 – 1817م.

نلفت الباحث إلى الاهتمام منهجيا بكتابة الأسماء الأعجمية خاصة أسماء الأعلام البشرية والأمكنة بالعربية والمقابل لها في الفرنسية ما بين قوسين، وتعريف الأساسية منها في الحواشي، ووضع تاريخ الميلاد للأعلام البشرية الواردة في محتوى البحث هجريا وميلاديا، وتوحيد صيغة كتابة بعض المفردات التي تتكرر في البحث بصيغ مختلفة بين الصفحة والأخرى، كبلاد الهوسا وكاتسينا ومحمد بلو، وينضاف إلى ذلك تكرار بعض المعلومات في أبواب البحث خصوصا في سياق الحديث عن الإصلاحات الفودية.

والملاحظ تقصير الباحث على مستوى توثيق بحثه، حيث كثيرا لا يضع إحالة للفقرة التي ينتهي منها على سبيل المثال الصفحة 87 وغيرها كثير، وننبه زيادة على ذلك بأنه يستحسن كتابة نصوص الاستشهاد بخط بارز حتى يميز القارئ بين المقتطف وأسلوب الباحث. ويرجى مراجعة البحث من الناحية اللغوية لتنقيحه من الأخطاء الإملائية المتناثرة هنا وهناك على صفحات البحث كالصفحة 86 حيث جاء فيها: **"الابيات الذي كان قائد للمعركة"** والصحيح الأبيات الذي كان قائدا للمعركة، وكما يفترض الانتباه إلى كتابة الإحالات بشكل صائب ففي الصفحة 108، الإحالة الأجنبية مكتوبة بطريقة غير منظمة، وفي الصفحة 85، إحالة أجنبية حروف مفرداتها ملتصقة، الشيء الذي يلزم تعديلها، وفوق ذلك سقط الباحث في كتابة كلمات أكثر من مرة في نفس السطر كحال الصفحة 112، حيث ورد تكرار ملحوظ كالآتي: **"فقد حاول أن يثبت أن يثبت"**، كما لم يسلم البحث من إسقاط مصطلحات ومفاهيم أوروبية في شرحه وتفسيره ونعته للتطورات التي أحدثتها الحركة الإصلاحية في الواقع التاريخي في بلاد السودان الأوسط، كإيراده لمفهوم الديمقراطية في الصفحة 134 من البحث، كما وقع في عدم التمييز بين المصادر والمراجع، فأحيانا يتحدث في المتن على أحداث تناولتها المصادر، ولكن في الهامش يحيل على المرجع كالصفحة 33 – 34، والخلط بين مصطلح الأمازيغ والبربر في الصفحة 34 – 35.

ووضع الخرائط في محتوى البحث بدلا من وضعها في الملحق في هامش البحث، حتى يستفيد منها القارئ على مستوى التوضيح البياني بالانسجام مع المعارف المستعرضة،

والاشتغال على المصادر السودانية التي تحدثت عن جغرافية بلادها في عنصر تحديد الإطار المجالي للدراسة لمعرفتها الدقيقة بمجالها الطبيعي الذي تستوطنه، وفي مقدمتها عبد القادر بن مصطفى، روضات الأفكار، مراجعة وتعليق أبو ألفا عمر محمد شريف بن فريد، منشورات سنكري، 1412ه/1991م، من مكتبة الشيخ أبي ألفا عمر محمد شريف بن فريد. وعثمان بن فودي، تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان، ضمن مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثالث، نسخة مصححة قام بتصحيحها محمد مودى شوني وسليمان موسى ايثاني، طبعة دار أبي اقرأ، 2003.

تضمن البحث أخطاء معرفية، إلا أنها قليلة، مثل الاعتداد أن عقبة ابن نافع زمن الفتوحات في المغرب وصل كوارد إلى شمال شرق النيجر وحاصرها مدة شهر ص 35 – 36، وهذا أمر مبالغ فيه، فحملته لم تتعد جنوب المغرب. كما ورد في الصفحة 60، خطأ في عنوان كتاب إنفاق الميسور، حيث كتب على الشكل الآتي: **"اتفاق الميسور"**. ويتطلب من الباحث الاعتناء بتنظيم وترتيب العناصر المنهجية لبحثه مع إضافة إليها الفرضيات في عنصر التقديم، ونضع بين يدي الباحث بعض المصادر والدراسات العربية والأجنبية التي من الممكن أن تغني بحثه وتعينه على إنجاز قادم أعماله والتي من أهمها:

-البكاي (أحمد)، قصائد الشيخ أحمد البكاي بن محمد بن المختار ولغيره من الفلانيين، مخطوط، مؤسسة علال الفاسي، المكتبة، الرباط، عدد 147.

-البكائي (أحمد)، رسالة عامة من أحمد البكائي إلى عامة الفلان، مخطوط، رقم ح 14 ج، المكتبة الوطنية الجزائرية دائرة الحفظ والمخطوطات، القياس 193 X 142 مم. عدد الأوراق 04 لوحات.

-سيسي (عبد الله)، حركات الإصلاح والتجديد في غرب إفريقيا خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، منشورات وزارة الأوقاف الإسلامية. المملكة المغربية، 1439ه/2018م.

-ولد سيد احمد (آدب) ، دور علماء كنتة في الحياة الإصلاحية والسياسية في موريتانيا والسودان الغربي 1759 – 1864، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف. المسيلة، تحت إشراف عمر بوضربه، أطروحة دكتوراه في التاريخ، السنة الجامعية 2022/2021.

-حسن يونس (جبريل)، حركة ابن فوديو الصوفية الإصلاحية في شمال نيجيريا وأبعادها النظرية، ضمن التصوف ودوره في إرساء الروابط والعلاقات بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، الناشر جمعية الشيخ ماء العينين للتنمية والثقافة، مطبعة الأمنية . الرباط، الطبعة الأولى 2017م.

-خليل (محمد)، شعر الدعوة في كتاب إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (للشيخ محمد بلو بن عثمان فودي)، ضمن من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . إيسيسكو، 1425ه/2004.

-الشاذلي (بهيجة)، الأوضاع الاجتماعية في السودان الغربي في النصف الأخير من القرن الخامس عشر من خلال رسائل الجلال السيوطي، ضمن الثقافة العربية الإسلامية بإفريقيا جنوب الصحراء غرب إفريقيا نموذجا، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان . أوت /آب، 1997.

-الشاذلي (بهيجة)، علاقة المغرب ببلاد الهوسا خلال القرن التاسع عشر نموذج خلافة صكتو، ضمن العلاقات المغربية الإفريقية حصيلة وآفاق، الناشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية . عين الشق . الدار البيضاء، تنسيق وتقديم بهيجة الشاذلي، صايح كرياسيون، الطبعة الأولى 1433ه/2012م.

-الشاذلي (بهيجة)، مكونات الفكر السياسي عند الشيخ عثمان بن فودي، ضمن الشيخ بن فودي، جامعة إفريقيا العالمية، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الخرطوم . السودان، 1995.

-حراش (سعيد)، الإسلام والمسيحية والعبادات التقليدية في إفريقيا الغربية بدايات ومسارات، منشورات معهد الدراسات الإفريقية . الرباط، الطبعة الأولى 2016.

-الجمل (شوقي عطا الله)، عثمان بن فوديو وسياسة الجهاد الإسلامي التي اتبعها (في ضوء مخطوط فريد بوثائق الرباط)، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الثالثة عشرة، العدد 26، رجب – ذو الحجة 1396/يوليو – ديسمبر 1976.

-حمدان (أحمد العلمي)، استنصاح السودان أحد فقهاء توات وتلمسان تحقيق رسالة للمغيلي في أمور السلطنة مع التقديم لها والقول في غرضها وغرض ما كتبه من جنسها، مجلة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، عدد خاص العلاقات المغربية الإفريقية، العدد الخامس، السنة 1409ه/1989م.

-سعيد (عمر أحمد)، جهود علماء خلافة صكتو في كتابة تاريخ بلاد السودان، مجلة المنهل، العدد 599. 600، السنة 1426ه/ 2005. 2006.

-الشاذلي (بهيجة)، من أعلام الثقافة الإسلامية بإفريقيا محمد بلو نموذجا، مجلة المناهل، العدد 56، السنة الثانية والعشرون، جمادى الأولى 1418/ شتنبر 1997.

- ندوة: الإسلام والمقاومات والدولة في إفريقيا الغربية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2003.

- الرسائل المتبادلة بين خليفة الدولة الصكتية أمير المؤمنين محمد بلو والشيخين المختار الحفيد وأحمد البكاي خلال القرن 13ه/19م، دراسة وتحقيق آدم بللو، قيد النشر.

*Sambe (Bakary), **politisation de formes de religiosités apolitiques : l'exemple des confréries musulmanes au Sénégal**, université lumière Lyon 2 – institut d'études politiques de Lyon, sous la direction de MM. Mohamed – Cherif Ferjani Lahouari Addi, année universitaire 1997/98.*

الخلاصة:

حظيت منطقة المشرق العربي الإسلامي بأفضلية على مستوى انطلاق الشرارة الأولى للحركات التجديدية، كحركة محمد بن عبد الوهاب 1703 – 1792م وحركة جمال الدين الأفغاني 1838- 1891م، وبلغ صيت وتأثير هذه الحركات إلى بلاد المغرب الإسلامي، فإما اعتنقت أعلامه أفكار بعض مصلحيها أو على غرارهم صاغت أفكار مماثلة في الإصلاح. ولعل من أبرزها حركة السلطان المولى سليمان 1792 – 1822م، الذي تزعم تجربة إصلاحية وهابية المرجع، تتناسب مع أهدافه السياسية وطبيعة تكوينه الديني، وبمقابل ذلك لم تستثن إفريقيا جنوب الصحراء من هذا المناخ العام، إذ شهدت حركات إصلاحية، حيث تم ميلاد عدد من المصلحين تفاعلت معها شعوبها، من أبرزها حركة عثمان بن فودي 1754 – 1817م، كان من دشن مسارها على ما نعتقد الفقيه المغيلي، قامت على أساس الاستناد لمرجعية سياسية متعددة الأسس، جسدت مجموعة من الأدوار المؤثرة، على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي في بلاد السودان الأوسط، فانتقلت هذه

الأخيرة من مرحلة التدهور والاضطراب والوثنية إلى مرحلة الثورة الإصلاحية الإسلامية. ومن النتائج المتوصل إليها نشير إلى:

تصاعد الاهتمام الباحثين بشمال إفريقيا بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، كدليل على قوة الانتماء لنفس القارة، حيث غلب على أعمالهم الالتزام بالموضوعية، عكس الأبحاث الأجنبية التي أغلبها تنظر للقارة بمنظار التبعية والدونية وتفتعل المغالطات التاريخية لتبخيس الواقع الحضاري الإفريقي.

يستنتج أن التاريخ المحلي الفودي، لا غنى عنه في فهم مجريات تاريخ بلاد السودان عامة. وعموما ينضاف البحث قيد الدراسة إلى الأعمال العربية الأكاديمية المرجعية عن بلاد السودان.

نأمل من الباحث محمد هداجي أن ينفتح في دراساته المستقبلية على موضوع دور استعمال الكتابة بالحرف العربي لدى قبائل الفولان في نجاح الحركة الإصلاحية الفودية. وكذا مسألة الهدي المنتظر في التراث الفودي ودورها في الحركة الإصلاحية الفودية، ونسائل الباحث هل يمكن أن نعتبر التراث السابق عن زمن عثمان بن فودي في بلاد السودان الأوسط مجرد وثنية؟

الهوامش:

[1] نوقشت أطروحات عديدة في الآونة الأخيرة عن ال فودي في الجامعة الجزائرية إلى جانب الأطروحة قيد الدراسة، على سبيل المثال لا الحصر، نذكر أطروحة محمد فتحة، المرجعية المالكية في فكر الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحي) 1232_1168ه/ 1817_1754م، جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، السنة الجامعية، 1443-1442ه/ 2022-2021م. والطاهر دوباخ، إمارة عثمان بن فودي في غرب إفريقيا 1218 – 1232ه/1804 – 1817م، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، كلية العلوم الإنسانية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في تاريخ افريقيا جنوب الصحراء المعاصر، الجزائر، السنة الجامعية 1440-1441ه/2019 - 2020.

[2] محمد هداجي، **العائلة الفودية ودورها الإصلاحي في السودان الأوسط خلال القرن 13ه/19م**، جامعة أحمد دراية. أدرار. الجزائر، أطروحة الدكتوراه، السنة الجامعية 2021/2020، ص 1.

[3] محمد هداجي، المرجع السابق، ص 1.

[4] نفسه، ص 2.

[5] نفسه، ص 2.

[6] نفسه، ص 3.

[7] نفسه، ص 4.

[8] نفسه، ص 5.

[9] نفسه، ص 6- 7.

[10] نفسه، ص 8 – 9 – 10 – 11 .

[11] نفسه، ص 12.

[12] نفسه، ص 16 – 17.

[13] نفسه، ص 18 – 19 – 20 - 25 – 26 – 27 – 28 – 29 – 30 – 31.

[14] نفسه، ص 33 – 34 – 36 – 37 – 38 – 39 – 41.

[15] نفسه، ص 43 – 44 – 47 – 48 – 49.

[16] نفسه، ص 52 – 54 – 55.

[17] نفسه، ص 55 – 56.

[18] نفسه، ص 58 – 59 – 62.

[19] نفسه، ص 63 – 64 – 65.

[20] نفسه، ص 66 – 67 – 68.

[21] نفسه، ص 69 – 76 – 77 – 83.

[22] نفسه، ص 85 – 86 – 87 – 88.

[23] نفسه، ص 89 – 90 – 91 – 92 – 96 – 97 – 100 – 103 – 104.

[24] نفسه، ص 108 – 110 – 111 – 112.

[25] نفسه، ص 113 – 114 – 116 – 119.

[26] نفسه، ص 122 – 124 – 126 – 127 – 128 – 129.

[27] نفسه، ص 130.

[28] نفسه، ص 132 – 133 – 134.

[29] نفسه، ص 135 – 136 – 137 – 138 – 140.

[30] نفسه، ص 142 – 143 – 146.

[31] نفسه، ص 146 – 147 – 148.

[32] نفسه، ص 148 – 149 -150 – 151.

[33] نفسه، ص 153 – 154 – 155 – 156 – 157 – 158 – 159 – 160.

[34] نفسه، ص 164 – 165 – 166 – 167.

[35] نفسه، ص 168.

[36] نفسه، ص 170.

[37] نفسه، ص 171.

[38] نفسه، ص 172 – 173 – 174 – 175.